

الآداب المكشوف

لقد فطر الذكر من جنس الإنسان على الحب والغزل وتدوين أخبارهما سواء أكان موضوع مايسجله أدباً مستوراً أم مكشوفاً ونثراً بليغاً أم شعراً عالياً ، فإن رؤية الوجه الصبيح تنفى همه وتريح باله وتخلي بلباله ، وتحرك همته وتخفف أثقاله وتنفس عن كربه وتجلو صدأ قلبه ، ولذلك كان فى شعراء الإفرنج الأقدمين من المجون أكثر مما تجده فى أدب العرب ، لأن الحب كان محظوراً ممنوعاً بحكم الدين وعرف الآداب ، فلما مل النساء من فضائل العفة والحجاب والقناعة بالصلوات المشروعة وتخلقن بأخلاق أخرى مجارة للزمن واستغلاً لأضعف الرجال وانحلال الأخلاق ، كما يحدث فى أواخر الحضارات ، قل المجون عند الإفرنج والعرب لزوال سببه ، ولأن ما كان يرمى إليه العاشق الماغن أو الناثر المتيم قد أصبح قريب المنال ، فلا حاجة لكاتب مثل رابليه ومونتني ، ولا شاعر كراسين وكورنى ، ولا لمؤلف روميو وجوليت ، حتى ولا دانتي

الذى احتاج الى روح معشوقته بياتريس لتصحبه فى رحلته الى
نعيم الجنة وجحيم النار ، الى الإلحاح فى المجون أو مناقدة
المحبوب أو الإفراط فى الغزل واستغنى شعراء الحرب عن الغزل
جملة فى استهلال قصائدهم واستهجنوه ، وأصبح شعر دعبيل :

لا يوينسُنك من مخدرة قول تفلظه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا
وأمثاله من نافلة القول .

ولكن الغريزة الجنسية وهى أقوى غرائز الانسان وإن وجدت
فى فساد الزمن وتحلل الأخلاق واندثار الفضائل البيتية منفساً
ومخرجاً ومفرجاً ، حتى استغنى الأدباء من الانشغال بها ، إلا أنها
تفتأ تملأ فراغ الذهن وتملك زمام البدن ، ومن سن المراهقة الى
الشيخوخة عند الجنسين ، فلا بد من دراستها وتسجيلها عند الفنان
والقصاص والراوية وعالم النفس ، لأنها وإن فقدت مكانتها فى
الأدب ، وكانت مكان إشادة وتشبيب وتفاجر وتمجيد ، فلم تفقد تلك
الغريزة مكانتها فى البدن والعقل والمخيلة والذاكرة والقلب
والعاطفة .

ولكن ثوب النفاق الفضفاض الذى اتخذته الطبقات الغنية

والجماعات المثقفة ليستر حقيقتهم ، اقتضى أن يتأنفوا قبل أن يتعنفوا ، ويتظاهروا بالفضيلة وهم يؤذون لو يجاهرون بضعها ماداموا يفعلون فى الخفاء نقيض ما يقولون فى العلانية، وقد يتخنون أكباشا للضحية من عهد الى عهد ، ليوهموا المعاصرين أنهم عاكفون على الاستقامة ، ناقدون على الاعوجاج ، عاملون على تقويمه ولو بالعقوبة الظالمة ، فكان من تلك الضحايا جيمس جويس الذى صادروا كتابه وأحرقوه وأعدموه وقاطعوا صاحبه وجرموه من ثمار عمله ، وأشد الأمم فى هذا النوع من الرياء المؤذى أمة الانجليز ، وقد بلغ الرياء قمته وأوجه وسمته وذروته فى عهد الملكة البائدة الشائخة منصوره (فيكتوريا) ، وكاد الرأى العام فى أخريات عهدها أن يختنق ، حتى دعاة النفاق منهم وأمة الرياء وحمله رايت ، ضاقوا به ذرعاً وصرحوا بأن نوام هذه الحال من المحال ، فأنقذهم الموت بقبض روح الملكة المتزمتة المتحرجه ، المكمة لأفواههم والمقيدة لأقلامهم والقابضة على تيار عواطفهم .

فلما انتهى عهدها بشروره ، رزقوا بعدها ملكاً محبوباً متساهلاً لا يأنف أن يجالس بنات الهوى فى أندية إيكس الحمامات أو فيشى أو إيفيان ، وأن يسمح للمصورين أن يلتقطوا صورته فى

وسط سرب من الفوانى نوات الجمال والدلال من الفرنسيات
اللاعبات اللاهيات ، وكان طول عهد أمه وكثرة السنين التى قضاها
ولياً للعهد يترقب انتقالها إلى كهف مدافن الأسرة المالكة ، قد
أياساه من الوصول الى العرش ، فاستباح التمتع والتنقل والتزين
والتحلى بالأزهار والجواهر والمغلاة فى انتقاء الثياب ، حتى أصبح
عميد الأزياء ، وبادئ كل طراز ومبدعه ، دع عنك ثروته الطائلة
وشهرته بالتبذير والإسراف ، فاجتذب النساء وفك عقدة التزمت ،
وحل أربطة الحرج . وكان هذا بمثابة صمام الأمان الذى وقى
الحياة الاجتماعية من الانفجار فى انجلترا ، وإن كانت قد انفجرت
مرات متكررة انفجاراً داخلياً باطنياً معلوماً لكل من عاشهم فى
بلادهم واطلع على دخائل أمورهم ، ولا سيما الغرباء عنهم والنزلاء
فى بيوتهم .

فالقول من هؤلاء إن جيمس جويس يفسد الأخلاق ويحارب
الفضيلة وينشر الإباحية ، قول أفن وحجة واهية وحملة مرذولة
ودعوى غير مقبولة .

ومن العبث قول بعضهم إن كتابه يقرأ من آخره الى أوله كما
يقرأ من أوله لآخره ، وقولهم إنه أضع وقته بذكر ما لا ينبغى ذكره

حيناً ، وحيناً بذكر ما لا يجدى نفعاً ، فهؤلاء عابوا قولاً سليماً وفتناً ربيعاً لم يبلغوا شأنه ، وأولئك أخفوا حقاً وجانبوا صدقاً ، وقد قضوا أعمارهم كلها فى الحرفة التى مارسها جويس بضع سنين ، وفى التماس التقريظ والثناء مهما كثر واتقاء النقد والملام والتفنيد مهما قل ، لأن الأول يجلب الربح ويروج لكتبهم ، والثانى يصرف القراء ويقلل دخلهم ، ثم إن صنعتهم أن يكونوا كتاباً ونقاداً يتقنون التأويل والتجريح ويلتمسون المعاذير ، مذهبهم التساهل والتسامح فى حق كل أديب ناشئ وشعارهم عين الرضا عن كل عيب كليله ، فماذا ضرهم لو أنهم أولوا ما أنكروه فى كتابه من أول وهلة وتمحلوا كما هو دأبهم أن يجعلوا منه حسناً ما يزعمون أنه قبيح ، ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته مخالفاً للنوق العام أو العرف الشائع فى عصر النفاق ؟

هذا يقال لبرنارد شو وود هـ لورانس وأمثالهما ممن حملوا على الكتاب حملة منكرة ، وقد شهدوا وعلموا أن هـ جـ ويلز وأرثور سيموندز وازرا باوند وأرنولد بنيت - وهم أعظم من المخالفين شهرة - قد مدحوه وأثنوا عليه وأعدوا له مكانه من الخلود وأعانوه على الزمن .

والجواب على ذلك أنها قلوبهم التي أكلها الحقد والحسد ،
وقد يكون عدم الإدراك والفهم ، ولكنه عذر غير مقبول في حق الذين
زعموا أنهم أعلام العصر وفحول الأدب الانجليزي وعجول النقد
المعبودة في عصر الإنحلال .

وقد أخذوا يضحون ويعجون ويجأرون وينعرون ويصخبون
ويتوعدون ويتهددون ويتذمرون ويدسون عليه ويلغون ويحرضون
ويحركون ويتحرفون حتى فازوا بإهانة الحكام والجواسيس
والصحافة والمحاكم والقراء والعامّة والسوقة ، فتربصوا للكتاب
وتصيدهم وصادروهم وأحرقوه وأعدموه وصادروا المؤلف في رزقه
وشوهوا سمعته وعطلوا شهرته وطعنوا صيته في الصميم ، ولكن
كل هذا لم يفلح وانتصر جويس في النهاية ، وأجمعت الكافة من
الخاصة وأولى الألباب على أن كتابه أعظم كتاب في عصره وأتقنه
وأحسنه وأبدعه وأصعبه فناً وأغزره مادة وأصوبه غاية .

وهذا البرنارد شو رئيس الجوقة وزعيم الفرقة والإمام الأكبر
البالغ أرذل العمر ، المباهى بالزهادة في اللحم والتبغ والخمر - ولم
يتعفف عن أكل لحم أخيه في الوطن والعقيدة والجنس واللغة وصنعة
الأدب وابنه في السن والنزعة والمذهب - لم ينس له القراء فحش

القول فى « ضيعة مسزوارنز » و غيرها من المسرحيات ، ولا علاقته القديمة بمسز أنى برانت وميس فار وغيرهن من الممثلات الجميلات وقد أرمقهن بتذللته وتحككه وتظرفه وتقربه حتى هرين من وجهه وفارقن لجاجته فى تحببه إليهن ، وفر بعضهن الى الهند واتخذن الرهبنة والتصوف ليخلصن إلى الأبد من جنس الرجال ، وأقبلن على هذه التضحية النادرة نذراً وكفارة عن سابق علاقتهن بهذا «الساتير» ذى القرنين والحافرين واللحية الشمطاء .